﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾

أى : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلّ الزمن يكشف لنا عنها .. والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى فى الكمال ، فإن استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا ، فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمّا آيات الله فى كتابه المبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بَدْء ولها نهاية ، وتتكوّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الشعراء] الواضح المحيط بكل شيء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه حمّل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك[1] .

والحق - تبارك وتعالى - يُسلّى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان .

كأنْ ترى ولدك يُرهق نفسه في المذاكرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسه ، فأنت تعتب عليه لصالحه ، كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعتب على رسوله شفقةً وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿بَاخِعٌ .. ③﴾ [الشعراء] البخع : الذَّبْح الذي لا يقتصر على قَطْع المرىء والودجين[1] ، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حزناً عميقاً يستولي على نفسك حتى تهلك ، وهذا يدل على المشقة التي كان يعانيها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له .

وفي موضع آخر ، يقول سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧﴾ [فاطر] فهذا أمر نهائي واضح ، ونَهْي صريح ، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار ، فقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ..③﴾ [الشعراء]

وقد نبَّه الله تعالى رسوله في عدَّة مواضع حتى لا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ④⓪﴾ [الرعد]

وقال : ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ②②﴾ [الغاشية]

وقال : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. ④⑤﴾ [ق]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله : يسِّر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

---

(١) الودجان : عرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر . والجمع أوداج . وهي عروق تكتنف الحلقوم فإذا فُصِد وَدَج . [لسان العرب ـ مادة : ودج] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف]

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق - تبارك وتعالى - كما قلنا - لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهّد أن يُغوي بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

إذن : لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتي ربه طواعية مختاراً .

حتى فى أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟!

وقال : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون فى التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين . ومثلها كلمة صدور القوم يعنى : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضِع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⑨⑨ ﴾ [يونس]

فإذا كان ربك لا يُكرِه الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه فى دين الله ؟ إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يوالى تنزيل القرآن عليهم ـ آية بعد آية ـ فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ⑭ ﴾ [النمل]

وقال عنهم :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾

قوله ﴿ مُحْدَثٍ .. ۝٥ ﴾ [الشعراء] يعنى : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التى لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ فى منهج الله ، إنما فى شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] فأنت عندهم صادق وأمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء] أى : فى غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [الأنفال]

بدل أن يقولوا : اهدنا إليه !!

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ ﴾

أى : كلما جاءهم ذكْر من الرحمن ، وآية من آياته أصرُّوا على تكذيبها ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) ﴾ [الشعراء]

كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ(١) يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص]

يعنى : غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم ، فآيات الله تسير أمامكم ، فكلُّ يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتتراجع أرض الكفر .

ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى لهم : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

فهذه ـ إذن ـ مقدمات تروْنها بأعينكم ، وكان ينبغى عليكم أن تأخذوا منها عبرةً وعظة ، فبوادر نجاح الدعوة وظهور الدين واضحة. هذا معنى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) ﴾ [الشعراء]

فليتهم اقتصروا على التكذيب والإصرار عليه ، إنما تعدَّى الأمر منهم إلى الاستهزاء بالرسل وبكلام الله ، ألم يقولوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان]

---

(١) المنقلب : مصدر ميمى بمعنى الانقلاب . والانقلاب إلى الله : المصير إليه والتحول . والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ ﴾

لَمَّا لم يفلح الذكر المُحْدث والآيات المتجددة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا . ردَّهم الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتى سبقتهم فى الوجود ، آيات فى السماء : الشمس والقمر والنجوم ، وآيات فى الأرض : البحار والقفار والجبال والنبات والحيوان .

وكلها آيات كونية لم يدَّعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها ، وقد سبقتْه هذه الآيات التى يراها : الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والعاقل وغير العاقل ، ألاَ ينظرون فيها نظرةَ اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذى انقطعتْ به السُّبُل فى صحراء جرداء حتى أشرف على الهلاك ، فأخذته سِنَة فنام ، ولما استيقظ وجد فى هذا المكان المنقطع مائدةً ، عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا ينبغى عليه قبل أنْ تمتدَّ يده إلى هذا الطعام أن يسأل نفسه من الذى أعده له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كوْن مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وجود لا تتناوله قدرته ، ولا سلطانَ له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليُوقدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد ، ألاَ يدلّ ذلك على الخالق ـ عز وجل ـ ويُوجب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ولو تأمل الإنسان فى (اللمبة) الصغيرة التى تضىء غرفة ، ولها عمر افتراضى لا يتعدَّى عدة أشهر وهى عُرْضَة للكسر وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف فى صناعتها فريق من المهندسين والعمال والفنيين ، وكثير من الآلات والعدَد ، ومع ذلك نُؤرِّخ لمخترع المصباح ، ونعرف تاريخه ، وكيفية صنعه .. إلخ . نعرف مخترع (التليفون والراديو) و ..

أليس من الأوْلَى أن ننظر ونتأمل فى خَلْق الشمس ، هذا الكوكب العظيم الذى يضىء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عُطْل طوَال هذه المدَد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم : ألاَ أُنبِّئكم بمَنْ خلق كل هذا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أنْ يُعيروه آذانهم ويؤمنوا .

هنا يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ .. (٧)﴾ [الشعراء] وهى آية ظاهرة أمام أعينهم ، يروْنَها هامدة جرداء مُقْفِرة ، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بالنبات ، ألم ينظروا إلى الجبال والصحراء بعد نزول المطر ، وكيف تكتسى ثوباً بديعاً من النبات بعد فَصْل الشتاء .

ألم يسألوا أنفسهم : مَنْ نقل هذه البذور وبذرها فى الجبال ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى هنا : ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء] كم : خبرية تفيد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير ، كما تقول لصاحبك : كم أحسنتُ إليك ، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة فى صالحك ، فالكلام بالإخبار دَعْوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه . فالمعنى : أن نبات الأرض كثير يفوق الحصر .

والزوج : الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من العامة يظن أن الزوج يعنى الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه مثله ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]

فهذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه مثله ، فلا تقول زوج أحذية . بل زَوْجَا أحذية . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم]

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإنْ كانت غير واضحة فيه كله كما هى واضحة مثلاً فى النخل ، ففيه ذكر نُلقِّح منه الأنثى لتثمر ، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى . لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة فى الجوافة مثلاً أو فى الليمون ، لماذا ؟

قالوا : مرة توجد الذكورة والأنوثة فى الشىء الواحد كعود الذرة مثلاً ، قبل أنْ يُخرج ثمرته تخرج سنبلة فى أعلاه تحمل لقاح الذكورة ، وحينما يهزها الريح يقع اللقاح على شُرَابة (كوز) الذرة ، وتتم عملية التلقيح . وقد تكون الذكورة والأنوثة فى شىء لا تعرفه أنت كالمانجو والتفاح مثلاً ، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى .

لكن الحق تعالى قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ثم وصف الزوج بأنه ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] فماذا يعنى الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذتَ الثمرة الواحدة ونظرتَ وتأملتَ فيها لوجدتَ لها صفات متعددة ونعَماً كثيرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وهى نعمة واحدة بصيغة المفرد ولم يقل نعم الله .

قالوا : لأن الحق - عزّ وجلّ - يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيتَ عناصرها وتكوينها لوجدتَ فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فمعنى ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] يعنى : كثير العطاء وكثير الخيرات.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٨) ﴾ [الشعراء] أى : فى آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الأرض ﴿ لَآيَةً .. (٨) ﴾ [الشعراء] شىء عجيب ودلالة واضحة على مُكوِّن حكيم يعمل الشىء بقصد ونظام ، ينبغى أن تلفتنا إلى قدرة الخالق - عز وجل - .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الشعراء] يعنى : مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] مع أنك لو تأملتَ آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتك إلى الله .

وَفِى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدلُّ عَلَى أنَّه الوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿ الْعَزِيزُ .. ۝٩ ﴾ [الشعراء] بعد أن قال ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾ [الشعراء] لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار .

فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه ؛ لأنه تعالى ربُّهم ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك .

فمع إِلْفهم العناد والتمرد على منهج الله ، أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التى تنزل به ؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فأعانهم الله على ما أحبُّوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان .

وكلمة ﴿ الْعَزِيزُ .. ۝٩ ﴾ [الشعراء] تعنى : الذى لا يُغلَب ولا يُقْهر ، لكن هذه الصفة لا تكفى فى حقِّه تعالى ؛ لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١)﴾ [يوسف] فالله تعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ .. (١٤)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون]

ثم يذكر سبحانه بعدها صفة الرحمة ، فهو سبحانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلِب ، ألم يتابع لهم الآيات ويَدْعُهم إلى النظر والتأمل ، لعلَّهم يثوبون إلى رُشْدهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على الكفر أمهلهم ، ولم يأخذهم بعذاب الاستئصال ، كما أخذ الأمم الأخرى حين كذَّبتْ رسلها .

كان الرسل قبل محمد ﷺ يُبلِّغون الدعوة ، ويُظهرون المعجزة ، فمَنْ لم يؤمن بعد ذلك يعاقبه الله ، كما قال سبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

أمَّا أمة محمد ﷺ فقد قال تعالى في شأنها : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقال هنا : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ [الشعراء] فالحق ـ تبارك وتعالى ـ في كل هذه الآيات يُسلِّي رسوله ﷺ ، ويعطيه عبرةً من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد بِدْعاً[1] في ذلك ، ألم يقل

(١) بِدْع : بديع أو عجيب . يُقال : فلان بِدْع في الأمر . أي : أول مَنْ فعله . قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩)﴾ [الأحقاف] أي : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

له ربه : ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس] فالمسألة - إذن - قديمة - قدم الرسالات .

لذلك ، يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ طرفاً من قصة نبى الله موسى :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله قصص الأنبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ۝١٢٠﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة ؛ لذلك تكرر القصص القرآنى لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآنى لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبى محمد ﷺ عبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لذلك كانت القصة تأتى فى عدة مواضع ، وفى كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذى نزلت فيه .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ .. ۝١٠﴾ [الشعراء] يعنى : اذكر يا محمد ، إذ نادى ربك موسى أى : دعاه . لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات ؟

قالوا : لأن كفار مكة كفروا بك أنت ، فلا تحزن ؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية ، وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. ۝٣٨﴾ [القصص]

والسياق هنا لم يذكر : أين ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن فى مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله .

ثم يأتى الأمر المباشر من الله تعالى لنبيه موسى : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء] أى : الذين ظلموا أنفسهم ، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً ، والشرك قِمَّة الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ولم يُبيِّن القرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون ؛ لأنهم معروفون مشهورون ، فهم فى مجال الشرك أغنياء عن التعريف ، بحيث إذا قلنا ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء] انصرف الذِّهْن إليهم ، إلى فرعون وقومه ؛ لأنه الوحيد الذى تجرأ على ادعاء الألوهية ، وبعد أنْ ذكرهم بالوصف يُعيِّنهم :

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

أى : قُلْ لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ؛ لأن الطلب يأتى مرة بالأمر الصريح : افعل كذا ، ومرة يتحنَّن إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل الاستفهام والعرض والحضِّ .

والمعنى : ألا يتقون الله فى ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره ، وظلموا بنى إسرائيل فى أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم .

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً ، وهو رأس الفساد فى القوم ؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعنك ؟ قال : لأننى لم أجد أحداً يردنى) فلو وقف له قومه وردَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا فى ركْبه إلى أنْ صار طاغية ، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً .

فقال موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾

لما دعا الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - لأنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أبدى لربه هواجس نفسه وخلجاتها ؛ لأنه يعلم مُقدَّماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] وكيف لمن يدَّعى الألوهية أنْ يسمع لرسول ؟

ويُرْوَى أنه في عهد الخليفة المأمون[1] ادَّعَى أحدهم النبوة ، فحبسوه ، ثم ادعاها آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حضرا قالوا : يا هذا إن هذا الرجل يدَّعى النبوة ، فقال : كذب ، أنا لم أرسِل أحداً . وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً .

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه :

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يضيق صدرى ساعةَ يكذِّبونني ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتلجلج وأتعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُقْنِع ؛ ذلك لأنني

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، وأحد أعاظم الملوك ، ولد عام ١٧٠ هـ اهتم بترجمة كتب الفلسفة إلى العربية . وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلسفة ، لولا المحنة بخلق القرآن فى السنة الأخيرة من حياته ، توفى عام ٢١٨ هـ عن ٤٨ عاماً . (الأعلام ٤/١٤٢) .

سأشاهد باطلاً واضحاً يُجابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يضيق صدرى بذلك ، خاصة وأن لموسى عليه السلام سابقة فى مسألة الكلام .

لذلك قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ⑬ ﴾ [الشعراء] وفى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ㉞ ﴾ [القصص]

يعنى : مساعداً لى يتكلم بدلاً عنى ، إنْ عجز لسانى عن الكلام ، وهذا يدل على حرصه - عليه السلام - على تبليغ دعوة ربه إلى فرعون وقومه .

وعليه ، فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال مرة عنهما : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد ، وقال مرة أخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ㊼ ﴾ [طه] بصيغة المثنى .

والرسول : هو المرسَل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو مُثنى أو جمعاً .

ومعلوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل ذلك وأهمّ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، ألاَ تراه يصبر على الطعام ، ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على الهواء ، فإنْ حُبِس عنه شهيق أو زفير فارق الحياة ؟

وسبق أن قلنا : إن من رحمة الله تعالى بنا أنْ يُملّك الطعام كثيراً ، وقليلاً ما يُملّك الماء ، لكن الهواء لا يُملّكه الله لأحد ، لماذا ؟ لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمنعه عنك ، فسوف تموت قبل أنْ يرضى عنك ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة ، وعليه تقوم حركتها .

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والرِّدْء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ونلحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإنْ قَلَّ الهواء يضيق الصدر ؛ لأنه يكفى فقط لاستبقاء الحياة ، لكنه لا يكفى الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ (١) فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبى الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثأرٌ قديم ؛ لأنه قتل منهم واحداً ، وإنْ كان عَنْ غير قصد ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] فأخاف أنْ يقتلونى به .

فيقول الحق سبحانه لموسى وهارون :

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(كَلاَّ) تفيد نَفْى ما قبلها ، وقبلها مسائل ثلاث : ﴿ أخاف أن يكذبون ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فعلى أىٍّ منها ينصَبُّ هذا النفى ؟

النفى هنا يتوجَّه إلى ما يتعلق بموسى - عليه السلام - لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه : اطمئن ، فلن يحدث شىء من هذا كله . ولا ينصبُّ النفى على تكذيبهم له ؛ لأنه سيُكذَّب ؛

---

(١) الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور . قال قتادة : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] أى : دفعه بكفه . فعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه . [تفسير القرطبى ٥١٤٦/٧ ، ٥١٤٧] .

لذلك نرى دقة الأداء القرآني حيث جاءت ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢)﴾ [الشعراء] في نهاية الآية ، وبعدها كلام جديد ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي .. (١٣)﴾ [الشعراء] وهو المقصود بالنفى .

وقد بيَّنَتْ سورة الفجر معنى (كلا) بوضوح فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ[1] رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿كَلاَّ .. (١٧)﴾ [الفجر] يعنى : ليس الإعطاء دليلَ إكرام ، ولا المنعُ دليلَ إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة .

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتُم ، وأحببتم المال حُبّا جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تنافستُم فى جَمْعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن : فالمال الذى أكرمكم الله به لم يكُنْ نعمة لكم ؛ لأنكم جعلتموه نقمة ووبالاً ، حين أُعطيتم فمنعتم .

وكلمة (كَلاَّ) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى ـ عليه السلام ـ فقد تعلَّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حُوصر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مُدْركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا .. (١٥)﴾ [الشعراء] الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدالة على صدْقهما فى البلاغ عن الله ، وهى هنا العصا

(١) قَدَر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد عن ضرورة الحياة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) ﴾ [الشعراء] كما قال لهما في موضع آخر : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

فمرّة يأتي بالسمع فقط ، ومرّة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون في المقام الأول سيكون جدلاً ونقاشاً ، وهذا يناسبه السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات في (فعل) و (عمل) في مسألة السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ؛ لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط في أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعين فيما بعد .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) ﴾

وسبق أن قال سبحانه : ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ .. (١١) ﴾ [الشعراء] فذكر قومَ فرعون أولاً ؛ لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكّره ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ .. (١٦) ﴾ [الشعراء] لأنه حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الذين أيّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون .

﴿ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الشعراء] إنَّا : جمع يُقَال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : رسُولا ؛ لأن الرسول واسطة بين المرسَل والمرسَل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مُثَنى أو جمعاً .

وكلمة ﴿ إِنَّا .. (١٦) ﴾ [الشعراء] سيقولها موسى وهارون في نَفَس واحد ؟ لا ، إنما سيتكلم المقدَّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمنْ يُؤَمِّن على كلام صاحبه . ألاَ ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا في الأرض واستكبر .. إلخ .